مواقف التوديع

في

الشعر العربي

obeikandl.com

obeikandl.com

مواقف التوديع في الشعر العربي

في أدبنا العربي مواقف كثيرة تتعلق بالجوانب الإنسانية وحياة الإنسان كمواقف الفرح والمناسبات السعيدة ، ومواقف الفخر والاعتزاز ، ومواقف الإعجاب ومواقف السخرية والتهكم ، ومواقف الكراهية والذم ، ومواقف الحزن والأسى وقد استفاض فيها الشعراء والأدباء ، فتناولوا أبعادها وما يكتنف الإنسان فيها من مشاعر وأحاسيس وما يعتمل في خاطره من هواجس وأفكار تعصف بالإنسان عصفا وتجتاحه من أقصاه إلى أقصاه .

في مثل هذه المواقف تختلط المشاعر وتتداخل الأحاسيس وتعتمل في الصدور فتفيض عبرات حارة محملة بلفح الجوى وشواظ الهجران .

إن المتأمل هذه اللحظات يجد عجبا ، فالنفس البشرية تألف الاجتماع وتأنس بالقرب واللقاء ، لأنها فيه تقر وتسعد وتحظى بالاطمئنان ، وتلك سمة فطر الله الناس عليها وأودعها في دخائل النفس البشرية ، فما تنفك تسعى للقاء جاهدة وتتمسك به ما وسعها التمسك ، لما في القرب من غنم وفائدة ، وتنفر النفس البشرية من التوديع وما يكتنفه من أسى وألم ، فتتحمله كارهة ، وتمر به متالمة وتعيش بعده جازعة مجروحة محترقة .

وحين تتأمل حياة الكائنات تجد ما يروعك ويملك عليك جماع نفسك فالطيور تهاجر آلاف الأميال بحثا عن الرزق ، ولكنها لا تتحمل الفراق كثيرًا ، لذلك سرعان ما تعود لتحظى بالقرب واللقاء حيث ألفت وعاشت ، وكذلك الإنسان .

وعبر هذه الأسطر القليلة نلقي الضوء على مواقف الوداع في قصائد الشعراء الأقدمين، والمحدثين ونتأمل هذا الجانب العاطفي ونعرض بعض الشواهد والمواقف التي تذكرنا بأن حياة الإنسان رحلة تبدأ بالولادة وتنتهي بانتهاء الأجل ، وفي مشهد الوداع تسيل الدموع، وتتأجج المشاعر وتتهافت الأحلام، وبقدر ما تكون المودة والتآلف والانسجام حال اللقاء ، يكون الفراق أشبه بانفصال الروح عن الجسد وتبلغ المشاعر ذروة الانفعال وتحترق الأنفاس وتظلم الدنيا في عيني العاشق الولهان حتى يشعر كأن روحه فارقت جسده ، وقد برع فحول الشعر في العصر الجاهلي في تصوير هذه المواقف الإنسانية وما يعتري النفس لأن حياة العرب في الصحراء كانت قائمة على الحل والترحال فهذا الأعشى (ميمون بن قيس) وهو من شعراء المعلقات يبدأ قصيدته اللامية مودعاً صاحبته هريرة حين تهيأ الركب للرحيل ولم يعد من الوداع بد لكن هذا الموقف أضعفه فلم يجد قوة على قدرة الاحتمال فقال :

ودع هـريرة إن الركب مرتحـل وهـل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

وهذا الشاعر الجاهلي يصور لنا حاله بعد فراق أحبته ، وكيف جلس شاردًا مفكرًا تسيل منه العبرات :

ظللت ردائي فوق رأسـي قاعـدا أعد الحصى ما تنتهي عبراتـي

ويقول امرؤ القيس مصورا يوم الرحيل :

تَـرى بَعَـرَ الآرامِ فـي عَرَصـاتِها

وقِيعانِها كأنهُ حَـبُّ فُـلْفُـلِ

كـأني غـداةَ البَـيْنِ يَـوْمَ تَحَمَّلُـوا

لدى سَـمُـراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنْظَلِ

وُقوفاً بها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ

يقولونَ : لا تهلكْ أسًى وتَجَمّلِ

وإنّ شِفائي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ

فهلْ عند رَسمٍ دارِسٍ من مُعَوّلِ؟

ويصور لنا ابن زريق البغدادي حاله ، وهو راحل عن زوجته التي تركها في بغداد مبتعدًا عنها بحثًا عن الرزق بعد أن ضاقت به السُبل فسافر إلى الأندلس من أجل المال ليقيل عثرته فمات غماً وكمداً ولفظ أنفاسه هناك ، فيقول :

أستوده الله في بغداد لي قمرًا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودجي لو يودعني ... صفو طيب الحياة وأني لا أودعه

كم قد تشفع بي أن لا أفارقه ... وللضرورة حال لا تشفعه

وقد تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه

لا أكذب الله ثوب الصبر منخرق ... عني بفرقته لكن أرقعه

إني أوسع عذري في جنايته ... بالبين عني وجرمي لا يوسعه

رزقت ملكًا فلم أحسن سياسته ... وكل من لا يسوس الملك يخلعه

ومن غدا لابسًا ثوب النعيم بلا ... شكر عليه فإن الله ينزعه

اعتضت من وجه خلي بعد فرقته ... كأساً أجرع منها ما أجرعه

ويعاتبه أصدقاؤه على ترك من يهوى ، فيستشعر الندم ، ويتمنى لو لم يفارقه ويرتحل عنه ويتحسر على ما كان منه ، فيقول :

كم قائل لي ذقت البين قلت له

الذنب والله ذنبي لست أدفعه

ألا أقمـــت فكـــان الرشـــد أجمعـــه

لـــوأنـــني يوم بان الرشد أتبعـــه

إنـــــي لأقطـــــع أيـــــامي وأنفـــــدها

بحسرة منه في قلـــبي تـــقطـــعه

مـــــن إذا هجـــع النـــوام بـــت لـــه

بلوعة منه ليلـــي لســـت أهجعـــه

لا يطمـــئن لجنبي مضطجع وكـــــــذا

لايطمئن له مـــذ بـــت مضـــجعه

مـــا كنت أحســـب أن الـــدهر يفجعنـــي

بـــه ولا أن بـــي الأيـــام تفجعـــه

حتى جـــرى البـــين فيما بيننـــا بيـــــد

عسراء تمـــنعـــني حـــقي وتمنعه

قد كنت من ريب دهري جازعـــاً فزعـــاً

فلم أوق الذي قد كنـــت أجزعـــه

وها هو يناشد منزله القديم متمنيا أن يرجع الزمان عهدًا مضى ، داعيا الله أن يحفظ من يهوى ، مبينا أنه مازال متذرعا بالصبر لعله يجد بعده فرجا مما آل إليه حاله .

بـــالله يـــامنزل العـــيش الـــذي درســـت آثـــاره

وعـــــــفت مـــــذ بنـــت أربعـــــــــه

هل الزمان مـــحيد فيك عـــيشتنا؟ أم الليـــالي التي أمضته ترجعه؟

obeikandl.com

في ذمـــة الله مـــن أصبحت منزله ... وجاد غـــيث على مغناك يمرعه
من عنده لـــي عهـــد لا يضـــيعه ... كما له عهد صـــدق لا أضـــيعه
ومن يصـــدع قلبـــي ذكـــره وإذا ... جرى على قلبه ذكري يصـــدعه
لأصـــــبرن لدهر لا يمـــتعـــني ... به ولا بي في حـــــال يمـــتعـــه
علمًا بأن اصطباري معقباً فرجًـــا ... فأضيق الضيق إن فكرت أوسعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنـــا ... جســـمي ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن تـــنل أحـــداً مـــنا منـــيتـــه ... فمـــا الـــذي بقضاء الله يصنعه

ويقول البهاء زهير، مصورًا حالة محبوبته الجميلة، وقد وقفت تودعه باكية حزينة، وجلة خوف الوشاة، وخوف الرقيب وهو يكاد ينفطر أسى وألما، يقول :

جـــاءت تودعنـــي والـــدمع يـــغـــلـــبـــهـــا يـــوم
الرحيـــــل وحـــــادي البـــــين منصـــــلت
وأقبلـــت وهـــي فـــي خـــوف وفـــي دهـــش
مـــثـــل الـــغـــزال مـــن الأشـــراك ينفلـــت
فلـــم تطـــق خيفـــة الواشـــي تـــودعني ويـــحَ
الـــوشـــــاة لـــــقد قـــالوا وقـــد شـــــمتوا
وقـــفـــت أبـــكـــي وراحـــت وهـــي باكيـــة
تســـــيرعني قلـــــيلاً ثـــــم تلتفـــــت
فـــيـــا فـــؤاديَ كـــم وجـــدٍ وكـــم حُـــرَق
ويـــا زمـــالـــيَ ذا جـــور وذا عـــنـــت

أما (سلطان العاشقين) عمر بن الفارض ، على عادة المتصوفة ، يبدين في بداية قصيدته أسفه – بعد رحيل أحبته عنه – لأنه لم يعطهم حقهم من الإنصاف والوصل .

وأنه لم يذق طعما للنوم بعد ارتحالهم :

قلبي يحدثني بأنك متلفي
روحي فداك عرفت أم لم تعرف

لم أقضِ حقَّ هَوَاكَ إن كُنتُ الذي ... لم أقضِ فيهِ أسىً ، ومثلي من يَفي
ما لي سوى روحي، وباذِلُ نفسهِ ... في حبِّ منْ يهواهُ ليسَ بمسرفِ
فَلَئِنْ رَضيتَ بها ، فقد أسْعَدْتَني ... يا خيبةَ المسعى إذا لمْ تسعفِ
يا مانعي طيبَ المَنامِ، ومانحي ... ثوبَ السُّقامِ بهِ ووجدي المتلفِ
عَطفاً على رمَقي، وما أبْقَيْتَ لي ... منْ جِسميَ المُضنى وقلبي المُدنَفِ

ثم يؤكد لمن يهوى – وقد ابتعد عنه – أنه باق على عهد الوصال ومواثيق المودة ، وانه لم يجد راحة في بعدهم عنه وشاهده في ذلك نجوم الليل التي يظل رفيقا لها في سهرها ، وكلما طاف بخياله مشهد التوديع تنهل دموعه مدرارة .

فالوَجْدُ باقٍ، والوِصالُ مُماطِلي
والصَّبرُ فانٍ، واللِّقاءُ مُسَوِّفي

لم أخلُ من حَسدٍ عليكَ، فلاتُضعْ ... سَهَري بتَشنيعِ الخَيالِ المُرْجِفِ
واسألْ نُجومَ اللَّيلِ: هل زارَ الكَرَى ... جَفني، وكيفَ يزورُ مَن لم يَعرِفِ ؟
لا غَروَ إنْ شَحَّتْ بِغُمضِ جُفونها ... عيني وسحَّتْ بالدُّموعِ الذُّرَّفِ
وبماجرى في موقفِ التَّوديعِ منْ ... ألمِ النَّوى ، شاهَدتُ هَول المَوقفِ

وأنظر إليه يرجو من يحب أن يصله ، فإن لم يكن وصلاً فهو راض بمجرد الوعد ، حتى ولو ماطل في الوفاء به ، فقط يقنعه مجرد الوعد لعله يطفئ ما يعتمل في نفسه من نار الجوى ، وقسوة البعد والهجران .

إن لم يكُنْ وَصلٌ لَدَيكَ، فَعِـــدْ بهِ ... أملي وماطلْ إنْ وعدتَ ولاتـــف
فالمطلُ منكَ لديَّ إنْ عـــزَّ الوفا ... يحلو كوصلٍ منْ حبيبٍ مسعـــفِ
أهـــفـــو لأنفاسِ النَّســـيمِ تعـــلَّة ... ولوجهِ منْ نقلتْ شذاهُ تشـــوُّفي
فلَعَـــلَ نارَ جـــوانحي بهُبوبِهـــا ... أنْ تَنطَفي، وأوَدّ أن لا تنطَـــفي
يا أهـــلَ ودِّي أنتمْ أملي ومـــنْ ... ناداكمُ يا أهْلَ وُدّي قـــد كُـــفي

وها هو يناشد أحبابه ويطلب منهم العودة إلى عهد الوفا كرما وتلطفا به وعطفا على حاله ، ثم يقسم بحياتهم مبينا أنه لو أعطى روحه لمن يبشره بقدومهم لم يكن منصفا ، ويذكرهم بحقيقة مهمة ، وهي انه أخفى حبهم خوف الوشاة ،فنحل جسمه وصار خيالا ، حتى كاد أن يختفي لشدة نحوله ، يقول :

عُودوا لَما كُنتمْ عليهِ مـــنَ الوَفـــا ... كرماً فإنِّي ذلكَ الخـــلُّ الـــوفي
وحياتكمْ وحياتكمْ قســـــماً وفي ... عُـــمري بغـــيرِ حياتِكُمْ ، لم أحلِفِ
لوْ أنَّ روحي في يـــدي ووهبتهـــا ... لمُبَشّري بِقَـــدومِكُمْ ، لم أنصفِ
لا تحسبوني في الهـــوى متصـــنِّعًا ... كلفي بكمْ خـــلقٌ بغـــيرِ تكلُّـــفِ
أخفيتُ حبَّكمُ فأخفاني أسىً حتـــى ... لعَـــمري،كِدتُ عـــــني أختَفِ

وفي قصيدة للشاعر(عمر بهاء الدين الأميري) ، تأمل مشاعره وأحاسيسه بعدما ابتعد عنه أولاده الثمانية وسافروا إلى المصيف في حلب ، يقول :

بالأمـــــس كانوا ملء مـــــنزلنا ... واليوم ويح اليوم قـــد ذهـــبوا

ذهبـــوا أجـــل ذهبـــوا ومســـكنهم ... في القلب ما شطوا وما قربـــوا

إني أراهـــم أينمـــا التفـــتت نفسي ... وقـــد سكنوا وقـــد وثبـــــوا

وأحـــس في خـــلدي تلاعـــــبهـــم ... وفي الدار ليس ينـــالهم نصـــب

وبريق أعـــــينهم إذا ظـــفـــــروا ... ودمـــوع حرقتهـــم إذا غلـــبـــوا

فـــي كـــل ركـــن مـــنهم أثـــر ... وبكـــل زاويـــة لهـــم صـــخب

في النافذات زجاجهـــا حطمـــــوا ... وفي الحائط المدهون قد ثقبـــوا

في الباب قـــد كســـروا مزالجـــه ... وعليه قد رســـموا وقـــد كتبـــوا

في الصحن فيه بعض مـــا أكلـــوا ... في علبة الحلوى التـــي نهبـــوا

في الشطر مـــن تفاحـــة قضـــموا ... في فضلة الـــمـــاء التـــي سكبوا

إنـــي أراهـــم حيثمـــا اتجهـــت ... عيني كأسراب القطـــا ســـربوا

حتـــى إذا ســـاروا وقـــد نزعـــوا ... من أضلعي قلبـــا بهـــم يجـــب

الفيتـــــي كالطفـــــل عاطفـــــة ... فـــإذا بـــه كالغيـــث ينســـكب

قد يعجـــب العـــذال مـــن رجـــل ... يبكي ولـــو لـــم أبـــك فالعجـــب

هيهـــات مـــا كـــل البكـــا خـــور ... إني و بي عـــــزم الرجـــال أب

وقد يكون وداعا لإنسان مكروه ، مثل ما قاله أمير الشعراء في وداع اللورد كرومر القائد الإنجليزي الذي كان في مصر ساعة الاحتلال الإنجليزي لها عندما رحل عن مصر ودعه قائلاً :

لمـــــا رحلـــــت عـــــن الـــــبلاد تشـــــهدت

فكأنـــــك الـــــداء العيـــــاء طويـــــــــلا

أوســـــعتنا يـــــوم الـــــوداع إهـــــانة

obeikandl.com

أدب لعمـــــــرك لا يصـــــــيب مثـــــــيلا
هـــــلا بـــــدا لـــــك أن تجامـــــل بعـــــدما
صـــــاغ الـــــرئيس لـــــك الثنـــــا إكلـــــيلا
أحســـــــبت أن الله دونـــــــك قـــــــدرة
لا يمـــــــــلك التغييـــــــر والتبـــــــديلا

وهذا أبو العتاهية ينظر إلى التوديع من زاوية أخرى ، فهو يقصد توديع الإنسان من الدنيا ، فيوصي المرء بوصايا منها :

عـــليكُمْ ســـــــــــــلاَمُ اللهِ إنِّي مُـــوَدِّعُ
وعـــــيْنَايَ منْ مـــضٌ التَّفَـــرُّقِ تَدْمَـــــعُ
فإنْ نحنُ عِشْـــــنَا يجـــــــــمَعُ اللهُ بيننَا
وَإنْ نحـــــنُ مُتْنـــــا، فالقِيامَـــــةُ تَجمَـــــعُ
ألـــمْ تَـــرَ رَيْـــبَ الـــدَّهْرِ فـــي كـــلِّ ســـاعةٍ
لـــهُ عـــارضٌ فيـــهِ المنيَّـــةُ تُلْمَـــعُ
أيـــا بـــانِيَ الدُّنْيَـــا لِغَـــيْرِكَ تبتـــني
ويـــا جـــامِعَ الـــدُّنيَا لِغَـــيْرِكَ تَجْـــمَـــعُ
أرَى المـــرْءَ وثَّابـــاً عَلَـــى كُـــلِّ فُرْصَـــةٍ
وللمَـــرْءِ يَوْمـــاً لاَ مَـــحَـــالَةَ مَصْـــرَعُ
تَبَـــارَكَ مَـــنْ لاَيمْلِـــكُ المُلْـــكَ غَـــيْرُهُ
مَتَـــى تَنْقَضِـــي حَاجَـــاتُ مَـــنْ لَـــيسَ يَشْـــبَعُ
أيُّ امـــرئٍ فِـــي غَايَـــةٍ لَـــيْسَ نَفْسُـــهُ
إلى غايَةٍ أُخـــرَى ، ســـواها ، تَطَلَّـــعُ